

# عقيدة الحياة والموت في المنظور الإسلامي .. غزة أنموذجًا

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 17 مارس 2024

بِقَلْمِ الدُّكْتُورِ زَكْرِيَا الْخَنْجَى

ربما أبدأ رحلتي اليوم معكم بجملة عمرها يزيد عن 90 سنة اطلقت من فم أسد الصحراء المجاهد عمر المختار أمام القائد الإيطالي المستعمر للأرض الليبية، فقد قال "نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت".

نحسب أن عمر المختار لم ينطق بهذا القول باعتبارها فلسفة أو محاولاً لإظهار معاني فلسفية للحياة والموت، ولكن نعتقد أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى الذي كان يتاجج في قلبه والفهم الواضح للإسلام ومبادئ الإسلام هي التي أطلقته بهذه الكلمات، فقد كان مفهوم الحياة والموت واضحًا عند هذا المجاهد الذي قضى جزءاً كبيراً من حياته يحمل البندقية محاولاً إخراج المستعمر والمحتل من أرضه.

إن مفهوم الحياة والموت في الفكر الإسلامي هو الأمر الذي أذهل العالم من تصرفات أهالي غزة في هذه الفترة، وكل الذي شاهد تلك المرأة بعدما خرجت من تحت الأنقاض وعلمت حينها أن كل أهلها قد توفوا فما قالت غير (الحمد لله)، أو ذلك الطفل الذي يعلم أن أبواه قد قضيا فما يبكي وإنما يقول (الحمد لله)، وغيرهما الكثير، هذا بسبب أن مفهوم الحياة والموت كان واضحًا في أذهان كل هؤلاء. بينما أن هناك كثيرين من الذي لا يعيشون أتون المعركة ولا يعرفون قيمة الموت والحياة ولا يفهمون معانيها في الإسلام يقول: ماذا استفاد أهل غزة من كل هذا الدمار وهذه

**المعركة؟ أما كان الأولى بهم أن يعيشوا خانعين يأكلون ويشربون في ذل وهوان أفضل من كل هذا الموت والدماء والدمار؟**

لم يأت أهل غرة بعقيدة الحياة والموت من فراغ، وإنما هي امتداد وتأصيل للعقيدة الإسلامية، فها هو الصحابي القائد سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه يرسل إلى ملك الفرس بخطاب يقول فيه "... جئتم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ...، فالحياة والموت في العقيدة الإسلامية سواء، بل أن الموت في سبيل الله سبحانه تعالى سيؤدي حتماً إلى الحياة الأبدية المنعمه في الجنة، فإن كان المرء يؤمن بالله سبحانه وتعالى فستكون تلك عقيدته، وإن لم يكن يؤمن فهذا شأنه.

### **مفهوم الحياة في الإسلام**

الحياة الدنيا في القرآن يلخصها الله سبحانه وتعالى في سورة يونس الآية 24 حينما قال: **إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٌ أَنْزَلَنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنْتَاهَا أَمْرَنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغُنِّ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).**

يقول السعدي في تفسير هذه الآية الكريمة "هذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحال الدنيا، فلذات الدنيا وشهواتها وجاهها وقتهم قصير، فلا يلبث الإنسان تعجبه الدنيا ويتنعم فيها ويري فيها الملذات حتى تزول عنه هذه النعم أو يزول هو عنها فيصبح صفر اليدين، ممتليء القلب من الهم والحزن والحسنة". علمًا أن هذا المفهوم يختلف

تماماً عن المفهوم الغربي المادي الملحد الذي يعتقد أن الحياة الدنيا هي المتعة والنهاية، وأنه لا توجد بعد هذه المتعة متعة أبدية.

ولكن كثيراً من المسلمين أخطأ في فهم هذه العقيدة، وأعتقد أن القرآن حقر الحياة الدنيا وجعلها لا تستحق الاهتمام والانهماك، فأدى ذلك إلى قبول الأمور الواقعية والاستسلام لها، مهما كان فيها من المسكنة والخمول والانكماس عن الجد في العمل والكفاح والحركة في سبيل حياة حرة ماجدة والظن بأن تعاليم القرآن تدعوا إلى نفض البذ من الحياة واعتبارها عابرة لا تستحق جهداً وكفاحاً وحركة ونشاطاً.

للأسف هذه النظرة للحياة الدنيا استفحالت قديماً إلى أن بلغت ذروتها، وقد عقد لها حجة الإسلام الشيخ والأمام الغزالى فصلاً في كتابه (إحياء علوم الدين)، بعنوان (ذم الحياة)، وبين أن الناس إزاء الدنيا أصناف، فصنف الأول: انكب على الحياة وطلب شهوتها أو مالها أو شهرتها أو سلطانها وجاهها.

وصنف ثانٍ: أعرض عنها وطلب الخلاص من محتتها بقتل النفس أو قطع الشهوات وإماتة الصفات البشرية أو الانقطاع إلى العبادة - والاستغناء عن الوسيلة والحيلة، وفي كل صنف من هذين الصنفين – كما يقول الغزالى – نيفاً وسبعين طائفه كلها ضالة ومضلة.

أما الصنف الثالث وهو الفرقه الناجية فيرى الدنيا: يؤخذ منها قدر الرزاد وأما الشهوات فيبقيها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء ولا يطلب كل شيء من الدنيا. حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكل همته واشتغل بالذكر والتفكير طول العمر.

فالحياة من المنظور الإسلامي هبة ربانية من الخالق، وحكمة عالية وغاية عظيمة، وغايتها كما يقول تعالى في سورة الملك – الآية 2 (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أَيُّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلاً)، فالاختبار والابتلاء بالعبادة والطاعة لله عز وجل هي وظيفة الحياة الدنيا (وما خلقتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونَ)، الذاريات – الآية 56، ولذلك تتميز حياة المؤمن بالاستقامة تجاه الله سبحانه فلا يشرك بعبادته أحد من خلقه، ولا يخالف أمره في كل شؤونه، والاستقامة تجاه الناس جميعاً، فلا يظلم أحداً ولا يعتدي على أحد ويحب الخير للجميع وينصر كل مظلوم، ولكنه لا يرضي بالذل والهوان، لذلك عليه من واجبات العبادة دفع الضرر أياً ما كان.

فالحياة الدنيا في العقيدة الإسلامية مرحلة تمر ولا تبقى، وتسر ولا تستمر، فهي كدورة النبات يبدو جميلاً ثم لا يلبث أن يصبح هشيمًا تتناثر مع الرياح، فبحسب المؤمن هي دار ممر إلى الحياة الحقيقية في الآخرة، عندها لا ينخدع بزيفها وزخارفها، بل يجعلها وسيلة لعمارة هذه الأرض وفق المنهج الرباني، ويصبح شاغله الشاغل فيها هو استعمال ما وهبه الله فيها من نعم وقدرات فيما يقربه من مولاه، وفيما ينفعه في الآخرة، وكل ما يغرسه من أعمال صالحة في الدنيا يجد ثمراته في الآخرة، الحياة الحقيقة اللائقة بهذا المخلوق المكرم.

ومن أراد الجمال الدائم والسعادة التي لا تزول والنعيم الذي لا ينفد فعليه التزام منهج الله في الدنيا ليirth الجنة في الآخرة.

## مفهوم الموت في الإسلام

الموت في الإسلام ليس نقىضاً للحياة الدنيا، وإنما هو مكمل لها، فالموت هو نهاية الحياة الدنيا فقط، ولكنه بداية الحياة جديدة وفي مكان آخر. فلقد تعاملَ الإسلام مع قضية الموت تعاملاً رشيداً واضحاً؛ ليطلق رؤية مؤسسةً لنظرة المسلمين للموت، مؤسسةً على عقيدة الإسلام. ولم يكتف بالترهيب أو استخدام الموت فراغةً كما يقول المبطلون في أقوالهم.

فالموت ليس فكرةً عاديه، بل ليس فكرةً وحسب، بل هو الحقيقة الأولى والأخيرة، وهو من الحقائق المطلقة التي تسلم بها كلُّ نفس، وتراها حاضرةً وتذوقها. وللموت كثير من الرؤى الفلسفية والفكريّة والأدبيّة، فقد كتب عنه في كلِّ الثقافات وبكلِّ اللغات. لذلك هو من المواد الثرية، وهو أيضاً من المواد التي يتتنوع فيها تفسير تلك الظاهرة التي تناول من البشر جميعاً، ويكون التفسير على حسب الثقافة الغالبة.

وفي الإسلام لا ينظر إلى الموت على أنه إنتهاء للحياة، بل على أنه استمرار للحياة في شكل آخر وفي مكان آخر، فهو بوابة لبداية حياة الآخرة، فالموعد الدقيق لوفاة الإنسان لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى بالحقيقة وبالثانية مهما حاولت الدراسات والأبحاث أن تطيل عمر الإنسان، إلا أن كل شخص لا يذهب إلا وقد اكتمل وجوده في الحياة الدنيا.

وعلى الرغم من ذلك فإن الموت مخيف ومحزن لأهل الميت، وهذا أمر طبيعي لأن الإنسان عدو لما يجهل، فهو يجهل ما سيأتيه من بعده.

ومحزن لأهل الميت لأنه فراق الأحبة، وبالتالي فإن هذه الحقيقة تصبح مؤلمة ومحزنة ومخيفة.

ولكن الله سبحانه وتعالى يصور لنا وفاة المسلم الطيب الذي فهم معنى وجوده في الأرض فيقول في سورة النحل - الآية 32 (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)، وفي سورة الفجر - الآيات من 27 إلى 30 (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعني إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)، والكثير من الآيات توضح، لا بل تمنح الاطمئنان إلى الإنسان الذي يؤمن بهذه العقيدة ويعيش معها ويعايش.

لذلك فإن الموت في العقيدة الإسلامية فكرة واضحة وحياة أبدية مستمرة وبداية رحلة إلى الله سبحانه وتعالى، فعندما قبل لأحد الأعراب "إنه ميت"، فقال: ثم إلى أين بعد الموت؟، فقيل له: إلى الله سبحانه وتعالى، فأجاب: "ما وجدنا الخير إلا من الله تعالى، أفنخش لقاء؟".

لذلك كان سيف الله رضي الله عنه واثقاً حينما قال (جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة)، وهؤلاء أحبوا الموت ليس لأنه النهاية، وإنما هو البوابة التي سيدلفون عبرها إلى ملاقاة الله سبحانه وتعالى وإلى الحياة السرمدية وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ومفتاحهم هو الشهادة في سبيل الله وفي أرض المعركة، بالإضافة إلى هذا كلهم فإن كل ذلك يتوج برضوان الله سبحانه وتعالى، وهذا هو اليقين الذي يعيش فيه أهل غزة، فإننا نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يحتسبهم كلهم شهداء، أما الذين يعتبرون على أهل غزة ويفكرون بالحسابات والماديات والربح والخسارة ويجدون أن أهل غزة يضحون ويموتون هم وأولادهم

من غير نتيجة، فأعتقد أنه ينبغي عليهم أن يعيدوا التفكير في  
عقيدتهم.